

مفهوم عالم أفكار مالك بن نبي بين النظري و التطبيق

The concept of the world of ideas Malik bin Nabi between theory and practice

د. محفوظ بن حجر

جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة-الجزائر-

m.ben-hadjer@univ-dbk.m.dz

تاريخ النشر: 30 ديسمبر 2022

تاريخ القبول: 23 نوفمبر 2022

تاريخ الاستلام: 02 نوفمبر 2022

ملخص البحث

في هذه المقالة أردنا تسليط الضوء على عالم الأفكار الذي يعتبر جوهر و روح الحضارة و التقدم، فالأفكار تدخل في صنع الحضارة و تدخل في كل الميادين و المشاريع، فكلما كانت هناك إستراتيجية سليمة تحمل في طياتها أفكار إبداعية و قوية كلما تطور المجتمع، و هذا لا يتأتى إلا بوجود إرادة سياسية تعمل بالعلم و تسعى لنشر الأخلاق و القيم في المجتمع و بذلك ترقى إلى المرحلة الثانية من تطور المجتمعات و هي مرحلة العقل أين يتساوى عالم الأفكار مع عالم الأشياء بالإضافة إلى ترسيخ مبدأ العدالة الإجتماعية حتى نصل إلى مقالته كونفوشيوس و هو تحقيق مبدأ الثقة بين الحاكم و الشعب و هو جوهر القضية كلها فكلما كانت الثقة موجودة أدى إلى تشكيل اللحمة المجتمعية و كلما غابت الثقة كلما إبتعدنا عن تجسيد مبدأ الحضارة و التطور لهذا المجتمع، فكل شيء مبني على محور عالم الأفكار الذي يجب أن نستثمر فيه و يجب كذلك أن يوضع على مستوى لوحة قيادة الدولة ككل لصنع النهضة الفكرية الحضارية.

الكلمات المفتاحية: الأفكار، – المجتمع- الحضارة- السياسة – الأفكار، المطبوعة و الموضوعة

Summary

In this article, we wanted to shed light on the world of ideas, which is the essence and spirit of civilization and progress, which goes into the making of civilization and the intervention in all fields and projects . The more a solid strategy includes creative ideas and as strong as the development of society, this cannot be achieved without a political will that works with science and seeks out the values in society and thus lives up to the second phase. of the development of societies: it is the stage of the mind where the world of ideas is equal to the world of things. In addition, the principle of social justice is established until we reach Confucius' Achieving the principle of trust between the Governor And the people (human resources) whenever trust exists leads to the formation of community cohesion.

Keywords: ideas - society - civilization - politics - printed and developed ideas.

1-مقدمة:

إن الحديث اليوم عن قضية مهمة وحساسة، هي قضية الأفكار التي أراد أن يوضحها لنا مالك بن نبي أننا لن نتطور ولن نتقدم دون معالجة أفكارنا، وضرب لنا أمثلة واقعية وهادفة من ألمانيا إلى روسيا إلى ما قاله كونفوشيوس وصولاً إلى فترة العقل في مرحلة تشكل الحضارة وخاصة ما جعل الحضارة الإسلامية تتألق وتتميز وتزدهر، ثم أوضح لنا ما فعله الإستعمار المستدمر الذي دمر كل الثقافة وزرع فيها أفكاراً مدمرة وقاتلة مازلنا ندفع ثمنها إلى يومنا هذا، ونقول إذا كانت لدينا موارد بشرية وكما قال ميشال كروزيان المورد البشري هو الجودة في المجتمع والإستثمار في الجودة هو الإستثمار في الإختلاف الموجود بين هذه الموارد البشرية ولن يتأتى هذا إلى بزراعة أفكار فعالة ومبدعة مع توفر الإرادة السياسية، فيجب علينا أن نضع أفكارنا تتوجه نحو هدف مشترك وهو الحفاظ على مجتمعنا والحفاظ على وحدة المجتمع وتلاحمه، في هذا الصدد سوف ينحلنا هذا الموضوع إلى الحديث عن عالم الأفكار في فكر مالك بن نبي وكيف هو في متجسد في الواقع الجزائري، لهذا سوف تكون مداخلتنا حول أفكار مالك بن نبي بين البناء والواقع الجزائري والتي نبذوها على النحو التالي:

2-أهمية الأفكار عند مالك بن نبي :

لقد أجمع جميع المفكرين والدارسين لفكر مالك بن نبي على أنه فكر حديث ينطلق من الواقع من خلال استقراءه وربطه بالتاريخ والقيمة الاجتماعية ، ويعتبر فكره ذو قيمة عالية وقيمة ، وذلك من خلال طرحه أرائه في شكل متكامل وشامل حول الإنسان والدين والحضارة ، فقد استطاع بفضل موضوعيته ومهارته أن يحلل الواقع العام للأمة الإسلامية وأن يحدد مواطن الخلل وتشخيص العلل وتقديم الوصفات العلاجية المناسبة التي يراها ، حيث أكد على أهمية الأفكار ودورها في تقدم المجتمعات الإنسانية ، وقدم ذلك من خلال العرض والتفسير النظري والواقعي عبر تتبع التاريخي لمختلف الحضارات، حيث لقب بفيلسوف الحضارة، دون أن ننسى أن فكر مالك بن نبي الذي يحتوي على العديد من الأفكار الفعالة والبناءة أصبح يستعمل في اندونيسيا وماليزيا وحتى ألمانيا، لهذا يجب أن نعيد أفكار مالك بن نبي وأن نعيد دراستها والتعمق فيها لفهم كيفية بناء الحضارة.

2-1-عالم الأفكار عند مالك بن نبي:

يعتبر مالك بن نبي عالم الأفكار هو الجوهر في بناء المجتمعات، لأنه هو المحرك والقوة الدافعة لتقدم ضمن المسار التاريخي، وذلك عن طريق تحريك العالم الآخر من عالم الأشخاص وعالم الأشياء، ولا يقاس عن المجتمع بما يملك من أشياء بل بمقدار ما فيه من أفكار، وقد يحدث أن تلم بمجتمع ظروف أليمة وأزمات مفاجئة، كأن يحدث فيضان أو زلزال أو تحدث حرب، فتمحوا عالم الأشياء محوا كاملا، أو تفقد ميزة السيطرة عليها إلى حين، فإن حدث وفقد المجتمع ميزة السيطرة على عالم الأفكار، كان الخراب ملحقا بعالم الأشياء، حيث إن فقد أفكار فقد كل شيء من أشخاص وأشياء، وهناك نقطة يجب توضيحها أنه بواسطة عالم الأفكار نبني عالم الأشياء فمثلا البيانات و التكنولوجيا الحديثة هي في الأخير نتيجة من نتائج عالم الأفكار.

ومن الأمثلة على ذلك نجد ألمانيا وروسيا فقد تعرضتا إلى ظروف دمرت عالم الأشياء فيها وذلك نتيجة الحرب العالمية الثانية، حيث أتت على كل شيء تقريبا، ولكن سرعان ما أعادتا بناء نفسيهما بناء كليا بفضل رصيدهما من الأفكار⁽¹⁾، التي ولدت في المجتمع روح العمل وتكريس مبدأ المواطنة لأن محل الثقة كان موجود بين الشعب والسلطة.

و بالرجوع إلى الأمة الإسلامية بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة نجد أن بعد الخروج من فترة الاستعمار، لقد ورثنا عالم فكري مشوه برواسب تلك الحقبة المظلمة من التاريخ من حيث عملة الجزائر بعد الاستقلال من خلال السلطات السياسية على تبني مشاريع كبرى لبناء دولة قوية ومجتمع متقدم وعملت على تسخير كافة الجهود لذلك حيث كانت توفر موارد مادية وبشرية هائلة، وعملت السلطة السياسية على تكديس الأشياء المادية الضخمة من مصانع ومؤسسات مزود بأحدث التكنولوجيا لدخول في مسار التقدم المنشود، إلا تحطم عالم الأفكار نتيجة رواسب الاستعمار حال دون ذلك.

حيث تناول ذلك مالك بن نبي قول أن الإنسان المتخلف يرجع سبب تخلفه إلى عالم الأشياء من خلال الغياب أو النقص، وبذلك يصبح مركب نقص لديه فاعلية اجتماعية إذا تنتقل من وجهة نفسية إلى وجهة اجتماعية، عن طريق تكديس المشكلات لتصبح مركب نقص فعالا ينفي أن يرد الإنسان المتخلف تخلفه إلى مستوى أو عالم الأفكار بل يرده إلى مستوى عالم الأشياء، فإن تطور العالم الجديد مبني أساسا على مقاييس فكرية.⁽²⁾

ولقد عبر مالك بن نبي بذلك حيث قال "فعلى عتبة حضارة ما، ليس عالم الأشياء الذي يتبدل، بل

¹- الجيلالي ضيف، بنات المجد، مالك بن نبي، دار الخليل، الجلفة، 2013، ص 169

²- المرجع السابق، ص 176.

الصور الأساسية لعالم الأشخاص، وحتى الوسائل التقنية في هذه المرحلة بالذات لا تنتجها نحو الأشياء، وإنما نحو الإنسان باعتبارها تقنية اجتماعية تحدد علاقات جديدة داخل المجتمع، على أساس ميثاق جديد، منزل كالقرآن الكريم، أو موضوع من طرف الأشخاص كالدستور⁽¹⁾.

ومنه فعملية الأفكار تخضع لشبكة العلاقات الاجتماعية لتنظيم العمل المشترك الذي يقوم به المجتمع، ولا يمكن تصور عملا متجانسا من الأشخاص والأفكار والأشياء دون وجود ترابط بأهمية شبكة العلاقات الاجتماعية وبعبارة أخرى تتمثل فاعلية هذه الشبكة في كمية أو عدد العلاقات التي تربط الفرد بغيره من أعضاء الجماعة في لحظة معينة من تطور التاريخ البشري.

ولقد تناول مالك بن نبي عالم الأفكار بالتحليل والتفسير من خلال مكوناته الأساسية وهي نوعين من الأفكار المطبوعة والموضوعة، والتي سوف نوضحها على الشكل التالي:

2-2- معنى الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعة:

شبه مالك بن نبي الأفكار بموسيقى، أي "إن عالم الأفكار اسطوانة يحملها الفرد في نفسه، وتختلف هذه الأسطوانة من مجتمع إلى آخر بعض النغمات الأساسية"⁽²⁾ ويرجع هذا الاختلاف إلى الطابع الخاص والذاتي لكل مجتمع، ولقد قسم عالم الأفكار إلى الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعة، ولتوضيح ذلك قدم الأستاذ مالك بن نبي مثالين عن هذه المسألة، أولهما على المجتمع اليوناني، حيث تجلت الأفكار المطبوعة في كتابات (هوميروس)، (أقليدس)، (فيثاغورس)، (سقراط)، وأما الأفكار الموضوعة تجسدت في المواقفات الموسيقية (أفلاطون)، (أرسطو)، وزادت عناية على يد الأجيال المتعاقبة في أثينا، ولقد وصلت ألقائها إلى الحضارة المعاصرة، وأما المثال الثاني الذي خصصه للمجتمع الإسلامي الذي حضى بدراسة معمقة من قبله، حيث تجسدت الأفكار المطبوعة للعالم الإسلامي منذ أربع عشرين سنة في شكل الوعي فتطبع في الجيل المعاصر لزول الوعي المتمثل في رجال الإسلام الأوائل و المتمثلين في صحابة رسول الله صل الله عليه وسلم، فأثارت العواطف المحركة لتاريخ ضمن الدافعية الحيوية في إطار حدود الحضارة، ولقد وضعت الأفكار المطبوعة بصمتها في الأفكار الموضوعة، حيث تجلت الأفكار الموضوعة في الفترة المضيئة للحضارة العربية الإسلامية عندما كانت عواصم العلم والفكر من بغداد ودمشق وقرطبة⁽³⁾، حيث رسم مسار الحضارة الإسلامية عبر ثلاث مراحل أساسية عبر مسارها التاريخي، حيث كانت المرحلة الأولى التي سمها مرحلة الروح، وتبدأ من البعثة المحمدية إلى تاريخ معركة صفين، ثم تبدأ المرحلة الثانية من هذه الواقعة إلى عصر ابن خلدون، ثم يلي ذلك المرحلة الأخيرة أو الثالثة وهي مرحلة الغريزة التي تبدأ من عصر ابن خلدون إلى يومنا هذا، ولقد ناقش مالك بن نبي فلاسفة الحضارة، وفي مقدمتهم توثي في فكرة نشوء الحضارة ووصل بنا إلى نظريته التي أصبحت مشهورة، وهي أن الحضارة لا تستورد، وإنما هي إبداع، وليست تكديس ولا جمع الأشياء، وإنما هي بناء وتركيب للعناصر الثلاثة: الإنسان، الزمن، التراب، وهذه العناصر لا تمارس مفعولها

¹- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق ط، 1977، ص 58

²- المرجع السابق، ص 68.

³- المرجع السابق، ص ص 70-71.

ضمن حالة متفرقة ، ولكن ضمن تركيب متألف يحقق بواسطتها جميعا إرادة وقدرة المجتمع المتحضر ، ومع تأكيد مالك بن نبي على دور الفكرة الدينية في ذلك(1)

2-3- الأفكار الميئة والأفكار القاتلة عند مالك بن نبي:

لقد ميز مالك بن نبي بين الأفكار الميئة والأفكار القاتلة خاصة في الواقع الذي يعيشه العالم الإسلامي من خلال حوار مع الأستاذ زيتوني وقضية مدح شوقي لباريس، حيث أن هناك عدد ضخم من الصفوة المسلمة سخرت لخدمة المستعمر، وهنا يمكن أن تتحول الأفكار الميئة إلى أفكار قاتلة بمرور الزمن إذا لم تعالج وتدرس بطرق علمية، ونقول أن السبب وجود هذه الأفكار و خاصة في المجتمع الجزائري و هي فكرة القابلية للاستعمار التي تشكلت في الثقافة الإجتماعية، حيث أن الأفكار التي ورثناها ما بعد التحضر هي أكثر قدرة على الفتك من الأفكار الأخرى مع توضيح ذلك من خلال المسار التاريخي للأمة الإسلامية، ولقد عرفهما في ما يلي:

*الأفكار الميئة: هي نتاج إرثنا الإجتماعي الذي تولد عن قابليتنا للاستعمار، بمعنى أنها الفكرة التي خذلت أصولها و انحرفت عن نموذجها المثالي ، ولم يعد لها دور في محيطها الثقافي الأصلي.

*الأفكار القاتلة: هي الأفكار المستعارة من الغرب التي تولدت من الاستعمار، بمعنى أنها الفكرة التي فقدت شخصيتها الثقافية، بعد أن فقدت جذورها في عالمها الثقافي الأصلي.

ومنه نستنتج أن هناك دور أساسي للأفكار وهي الفاعلية حيث تكتسب هذه الفاعلية من خلال قدرة صاحبها، بمعنى إمكانية شق طريقها في التاريخ من خلال عوامل القوة والفاعلية مثل كلمة اقرأ ، التي نجدها بشكل كلمة لم تكن لتلقن القراءة لناس فحسب من أجل اكتشاف العلم فحسب، بل من أجل غاية أخرى أهم من علم ولا تنكر العلم أيضا، هذه الغاية هي أن تقرأ من أجل اليقين والحقيقة ، لأن الإيمان لا يكون عن جهل، و جمع العلاقة بين الخالق الله تعالى ومخلوقاته (2)

وحسب ما لخصه عبد اللطيف عبادة عن الأستاذ مالك بن نبي أن الفرد يؤثر في المجتمع بثلاث مؤشرات وهي :

- بفكره: ضرورة توجيه الثقافة.
- بعمله: ضرورة توجيه العمل حتى كسب أنفسنا قوة في الأساس وتوافقا في السير وحدة الهدف وتجنب الإسراف في الجهد وفي الزمن .
- بماله: ضرورة توجيه رأسمال.

ويعتقد مالك ابن نبي أن التكامل في التوجيه هو الذي يؤدي إلى الحضارة يخرج المجتمع من عالم التخلف ، و إذا أدير قفل الجهاز الهائل المكون من الملايين من سواعد العقول في أحسن الظروف الزمنية،

¹- عبد اللطيف عبادة ، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي ، دار شهاب ، باتنة ، الجزائر ، ط1 1984، ص ص 42-43

²- الأخضر شريط ، مشكلة التاريخ في الحركة التاريخية (أو تفسير التطور الحضاري عند مالك بن نبي) دار الخليل الجلفة، طبعة خاصة، 2013 ص ص 42-43

والإنتاجية المناسبة لكل عضو من أعضائه، وتحريك الجهاز فلا شك أن ذلك سيؤثر على مجرى التاريخ ويحدد سيره نحو الهدف المنشود.

كما تحدث عبد اللطيف عبادة عن التوجيه: فتوجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه الرأسمال في الميدان النظري ولا أحد يعلم ما التوجيه في الميدان العملي⁽¹⁾ وهذا ما يقودنا إلى البحث عن العلاقة بين الفكر والعمل، حيث جوهر المشكل في العالم الإسلامي هو مشكل التفكير الذي يعبر عن مشكلة مجتمع بأكمله لأن ملاحظة ظاهرة التخلف، تظهر في جميع المستويات عند المثقفين وعند العمال وعند الفلاحين، ومن العيب أن نعتقد أن التفكير هو تكديس ورصف لمجموعة كبيرة من الأفكار المتباينة، بل التفكير هو قبل كل شيء هو تعبير عن توتر نفسي، وتطلع روحي وتشوق إلى المقدسات والمثل هو من ناحية أخرى مرتبط بالعمل، إنه أدوات وإجرائي وفعال وهادف، التفكير الحقيقي لا يتلاعب ولا يتهاون، ولا يتقاعس، بل هو صريح، إن الإنسان ما بعد الموحدين مرتبط بالغريزة وملوث بأوساخها في شتى مظاهره، وهذا الإنسان الصانع يستورد الآلات والمنتجات معتقدا اعتقادا راسخا بأن الحضارة هي تكديس المنتجات المادية، في حين أن التفكير لا يستورد بل هو إبداع وخلق كما أن الحضارة ليس تكديس المنتجات بل هي بناء، حيث أكد الأستاذ مالك بن نبي أن التفكير السليم يقاس بالموضوعية والفعالية، والفعالية تتطلب الحركة وليس الجمود⁽²⁾

3-الطفل والأفكار:

الطفل من منظور الأستاذ مالك بن نبي إنسان منعزل في طريقه إلى الاندماج فيتدرج في سياقات نفسية جسدية لا يتم تجاوزها بسهولة، لا بد له أن يمر بهذه السياقات من أجل تحقيق اندماج مناسب، فنجد أن العائلة والمدرسة تساعد في ذلك، هذه المساعدة الاجتماعية تستطيع بل ويجب أن تعمل بطريقة تختصر وتكمل عملية اندماج الطفل، فهي لا تستطيع أن تلغيه، فاندماج الطفل في مجتمع هو بيولوجي منطقي وهو يشمل ثلاثة أعمار وهي:

- العمر الذي يكتشف فيه عالم الأشياء، وهو يلعب بأصابعه .
- العمر الذي يكتشف فيه تدريجيا عالم الأشخاص، وهو يتعرف على وجه الأم بادئ الأمر.
- العمر الذي يكتشف فيه أخير عالم الأفكار، وهذا الكشف هو الذي سوف نتناوله بالتحليل.(3)

ومن خلال التطرق لهذا العنصر يقودنا الأستاذ مالك بن نبي إلى وظيفة أساسية في المجتمع ألا وهي التربية حيث لخص الأستاذ محمد بغدادى ذلك بأن الفكرة المستقرة في أذهاننا هي أن مفهوم التربية يربط الطفل بالمؤسسة التعليمية وما يلحق بذلك من برامج وطرق والوسائل وما إلى ذلك، إن التربية المستهدفة هنا تخرج عن الأطر المعهودة، وإن كانت المدرسة والتعليم جزء منها، إنها تربية نوعية تتعلق بالإنسان، ومنه

¹ عبد اللطيف عبادة، المرجع السابق، ص 45

² نفس المرجع، ص 27

³ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 30

نستخلص أن الأستاذ مالك بن نبي لم يتحدث عن التربية بصفة مباشرة ، بل أعطى أفكار في التربية في سياق اهتمامه بالإنسان ، حيث أكد من خلال طرحه لمشروعه النهضوي الحقيقي والمتكامل ، أي مشروع إقامة الحضارة ، وغايته من بناء الحضارة هو الدافع إلى التفكير في مشكلاتها ، عن طريق سعيه لحضور الإنسان الذي خرج من الحضارة أو إنسان ما بعد الحضارة ، وهذا من خلال إعادة إدماجه من جديد في حركة التاريخ ، والذي يفترض بضرورة إعادة تأهيله من خلال التربية ، وهذا ضمن الوضع المناسب والأهداف التي ترتبط بوسائل من أجل الإصلاح والنهضة ، ولقيام بهذه المهمة الصعبة المتمثلة في القلب ، و اليد والعقل ، باعتبارهما وسائل ملازمة لإنسان في كل حين ، أي مهما تغيرت الظروف النفسية – الاجتماعية و مدام أن كل النشاط يقوم به الإنسان إلا ويكون مصدره هو الدافع الموجود في القلب ، تحركات اليد وتوجيهات العقل ، فإذا كانت أعمال علماء الآثار قد أثبتت علاقة اليد بالعقل ، بحيث كلما تحركت اليد وعملت حرصت العقل على الابتكار ، وبقي أن نضيف – لاستكمال فكرة عند الأستاذ مالك بن نبي – دور الإرادة التي تحرض اليد على الحركة والضمير الذي يعمل على توجيه ابتكارات العقل فيما يفيد الإنسانية ويسعدها لا فيما يضرها ويتعسها ، وهذا الضمير يستمد مقوماته من عقيدة الفرد الذي يؤمن بها. (1)

ولقد طرح الأستاذ إدريس الخرشاف نظرة مستقاة من فكر مالك ابن نبي حول المؤسسة التعليمية والتأكيد على عدة مهارات يجب اكتسابها لبناء الإنسان الصنع لحضارة ونكرها على سبيل المثال لا حصر (مهارات القراءة ، التفكير ، التحفيز ، الاستماع والإنصات ، إدارة الوقت ، الحوار العقلاني ، الإبداع ، اخذ القرارات). (2)

ومن خلال تناولنا لهذا المحور حول أهمية الأفكار عند الأستاذ مالك بن نبي ، حيث كانت هذه القضية تمثل محور الدراسات التي قام بها حول الحضارات الإنسانية بصفة عامة و الحضارة الإسلامية بصفة خاصة ، وهذا من خلال منطلق انتمائه لها ، طرحه هذا ضمن بناء نظري متكامل وشامل مبني على أسس معرفية ودراسات تاريخية وتحقيقات علمية مضبوطة ، إذا قضية الأفكار عند الأستاذ مالك بن نبي هي قضية إنسان وقضية مسار تاريخي لأمة ، وقضية روايت ثقافية ، ومراحل اجتماعية سابقة ، وقضية عقيدة غيب مدلولها الواقعي في الحياة الاجتماعية ، وكذلك قضية نفسية تعبر عن فراغ روحي وعن طغيان عوامل مادية وعن غياب العقل وظهر الجهل و الخرافة ، إذا هي قضية الإنسان المسلم إنسان ما بعد الموحدين ، هذا الإنسان الذي خرج من مسار الحضاري ، وكيف يمكنه أن يعود إليه ؟

4- الحضارة والأفكار:

عند هذه النقطة الحساسة واستنادا إلى ما جاء به السيد مالك بن نبي فإنه كتبوا قال: إن الحضارة ما هي إلا نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر وهي الدفعة التي تدخل بها التاريخ(3).

1- بحوث ملتقي ، مالك بن نبي استشراف المستقبل ، (من شروط النهضة إلى الميلاد الجديد) ، ج1، منشورات وزارة الشؤون

الدينية والأوقاف – تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية ، 2011 ، ص 1220

2- المرجع السابق، ص 137²

3- مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 41.

فمن خلال هذه الجملة نطرح عدة أسئلة جوهرية والتي هي على النحو التالي:
- من الذي يقوم بزرع وغرس هذه الفكرة في المجتمع؟ مع العلم أن المجتمع دائما لا يريد التغيير.
- هل هذه الفكرة تأتي عن طريق بناء إستراتيجي أم هي تظهر عن طريق الصدفة؟
- كيف يمكن لنا كمختصين في علم الاجتماع أن نبني إستراتيجية لصناعة أفكار إبداعية تحمل في جوهرها صنع الحضارة أو إعادة بناء حضارة؟

و هنا يجب توضيح شيء مهم و هو أن الحضارة حتى يتم بنائها و كما تحدث عنها مالك بن نابي فإنه وضع معادلة والتي هي على النحو التالي: الحضارة = إنسان + تراب + زمان. و من خلال هذه المعادلة أضاف شيء مهم و هو الجانب الديني الذي نستمد منه القيم والأخلاق، و كنتيجة مهمة فإن الحضارة يتم إنتاجها من قبل المورد البشري السوي، و لو رجعنا إلى الماضي فإنه ينحلنا مثلا على سبيل المثال و ليس على سبيل الحصر أن ألمانيا و بعد الحرب العالمية بعشرة (10) سنوات صنعت المعجزة و بنت الحضارة فكان أفرادها يقومون دائما بزيادة ساعتين (02سا) من وقتهم في العمل تطوعا من أجل ألمانيا، فلو نتعمق جيدا نجد أن الفكرة الدينية هي المحرك الأساسي للحضارات فهذا ما قاله هرمان دي كيسرلنج في كتابه البحث التحليلي لأوربا، حيث قال: أن أعظم إرتكاز لحضارة أوربا هو روحها الديني، و هذا ما أوضحه كذلك ماكس فيبر في كتابه الأخلاق البروتستانتية و روح الرأسمالية، إذن لتكوين الحضارة ليس الإنتاج الصناعي و الفنون، بل هو مبدأ الدين ثم العناصر الثلاث و التي هي الإنسان و التراب و الوقت(1).

و هنا يجب أن تكون هناك إرادة سياسية و إرادة المجتمع و قدرته على توظيف الحضارة التي تحمل في طياتها العوامل المعنوية و المادية اللازمتين لتنمية الموارد البشرية و التي يجب أن تتجسد على سياسة منبعها الصفوة في المجتمع و التي تكون على شكل تشريع يمثل إسقاطا مباشرا لعالم الأفكار المتمحورة على شكل خطط و إستراتيجيات على الصعيد الإجتماعي والأخلاقي(2).

و لتوضيح ما قلناه سوف نأخذ مثلا عن ذلك و الذي هو على النحو التالي: نحن نعلم أن الحضارة تمر بثلاثة مراحل أساسية و هي مرحلة الروح ثم مرحلة العقل و بعدها مرحلة الغريزة، أو دعونا نقول مرحلة ما قبل الحضارة ثم تأتي مرحلة الحضارة، لنختتمها بمرحلة ما بعد الحضارة، فمرحلة ما قبل الحضارة تمثل لنا مرحلة الجاهلية، ثم مرحلة العقل أو مرحلة الحضارة هي تمثل لنا الحضارة الإسلامية، لنختتمها بمرحلة الغريزة أو ما بعد الحضارة و هي تمثل لنا ما بعد الموحدين، حيث يبين لنا جيدا مالك بن نابي أن مرحلة الحضارة أو مرحلة العقل يكون فيها توازن بين عالم الأفكار و عالم الأشياء، و هنا يكون فيها العلم و العمل به في أوجه مع الإلتزام بالقيم والأخلاق، و أما مرحلة الغريزة أو كما يسميها البعض بمرحلة ما بعد الحضارة هنا يستحوذ فيها عالم الأشياء على عالم الأفكار.

¹ - مالك بن نابي، محمد العبدية، ملك بن نابي مفكر ورائد إصلاحي، ط1، دار القلم، دمشق، 2006.

² - مالك بن نابي، شروط النهضة، ترعرع الصبور شاهين، دار الفكر المطبعة العلمية، دمشق، 1979، ص43.

و عندما نعود إلى واقعنا المعاش بالجزائر فإننا اليوم نعيش بقايا حضارة كما بينها لنا مالك بن نابي وهنا نطرح سؤال جوهريا وهو كيف يمكننا صناعة الحضارة؟.

فلو تعمقنا في المجتمع الجزائري اليوم نجد وبكل صراحة أن التراب أو الوطن موجود، بالإضافة إلى ذلك الإنسان أو المورد البشري موجود كذلك دون أن ننسى الزمن الذي لا يتوقف و هو مستمر له الطابع الديناميكي ولكن ما ينقصنا لصنع الحضارة اليوم هو القيم والأخلاق التي أصبحت تكاد تكون منعدمة في مجتمع دستوره ينص على أن الإسلام دين الدولة، فأصبح الفرد في الإدارة لا يتقن العمل و يسرق من الوقت ومن عالم الأشياء الموجود في تلك الإدارة، بل وأصبحت أفعاله بعيدة عن العمل عبادة و غابت بذلك الثقافة التنظيمية و عدم تقبلها، و غاب أيضا المعنى الحقيقي للولاء التنظيمي و الإجتماعي و كنتيجة حتمية غابت معنى المواطنة التنظيمية و الإجتماعية، و السبب كله يعود إلى أننا لم نفهم ماذا يريد هذا المورد البشري كل هذا إنعكس بالسلب على المجتمع الجزائري، ف كنتيجة حتمية لا نستطيع بناء حضارة و نحن نعاني غياب مواطنة إجتماعية بالإضافة إلى غياب القيم و طغيان الجانب المادي المبني على المصلحة الشخصية دون التفكير في المصلحة العامة.

إذن و كما قال ميشال كروزي أن الجودة هي المورد البشري هو ذلك الإنسان الذي يعيش في هذا المجتمع، لكن يجب أن نعرف كيف نبني هذا المورد البشري فهذا مشروع دولة و الذي بدايته هي الأسرة و المدرسة أهم نسقين أساسيين و أهم بنائين في المجتمع اللذان يصنعان لنا منتجات الغد.

05-المجتمع و الأفكار:

إننا و كما هو معلوم و خاصة عند تدقيقنا في كتاب مالك بن نابي و الذي يحمل عنوان مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، إستخلصنا أن كل مجتمع تميزه ثلاثة (03) عوامل رئيسية و التي هي على النحو التالي:

عالم الأشخاص، عالم الأفكار و عالم الأشياء، و بتناغم هذه العوامل و تشابكها يتشكل المجتمع من جهة و من جهة أخرى و بتغلب عالم عن آخر أو جهة عن أخرى فإنه سوف ينتج لنا تميز المجتمع عن غيره من المجتمعات، ففي مرحلة التحضر مثلا نجد أن هناك تساوي و توازن بين عالم الأفكار و عالم الأشياء و هنا يكون هناك العلم مع وجود القيم والأخلاق، و أما عند مرحلة ما بعد التحضر أو مرحلة الغريزة يستحوذ عالم الأشياء على عالم الأفكار و هو واقعنا اليوم، بحيث نلاحظ جيدا أن التكنولوجيا و التي تمثل في واقعها عن عالم الأشياء قد تغلبت على المورد البشري حتى أصبح لا يملك أفكارا إبداعية و دخل مرحلة الإغتراب النفسي و تعايشه مع العالم الافتراضي من خلال إندماجه التام و الكي في عالم الأنترنت و شبكات التواصل الإجتماعي التي تمثل في حد ذاتها أفكارا كانت مدروسة من قبل الغرب و مصدرها مخابر بحث علمي تحتوي في طياتها على أفكار سامية و قاتلة و وضعت على شكل إستراتيجيات مدمرة للشعوب العربية، و فعلا و بمرور الزمن أصبحنا نرى هذه النظرة و لاحظنا جيدا كيف أن شبابنا اليوم أصبح يعيش في فوضى و أصبح يعيش في انفصال تام عن مجتمعه و ما يجري حوله فهمه و تفكيره هو كيف يبقى في الفضاء الأزرق لأطول مدة زمنية

ممكنة وهنا يجب التلميح إلى الذهاب إلى زاوية خطيرة وهي زوال المجتمع أي ذلك الترابط و التلاحم بين أفراد المجتمع سوف يزول و يتلاشى إذا طغت التكنولوجيا على الأفراد بواسطة إستعمالها المفرط، فهنا يجب تدخل السلطة لوضع خطط مضادة لما سوف يؤول إليه المجتمع و محاولة تقييم و تقويم الوضع الراهن، و معالجة هذه الظاهرة التي سوف تقضي على المجتمع الجزائري المعروف بقيمه و نصبح نعيش تحت رحمة الغرب و هذا ما يريده أعداء الجزائر اليوم، فيجب أن نفكر كيف نعالج تلك الأفكار المزروعة اليوم في مجتمعنا بحكمة و روية للخروج إلى بر الأمان و الخروج من بقايا حضارة إلى بناء حضارة تدوم و لا تزول، و يجب أن نفكر أيضا في كيفية الوصول بالمجتمع الجزائري إلى مرحلة العقل و التعمير فيها لأطول مدة زمنية و التفكير ثم التفكير في كيفية المحافظة عليها و جعلها تمثل لنا مرحلة ما بعد التحضر.

6- الأفكار و السياسة:

أردنا الولوج إلى هذه النقطة الحساسة من خلال الحوار الذي دار بين كونفوشيوس و أحد طلبته المدعو تسي كوغ و هذا ما أراد مالك بن نابي أن يبين لنا شيء مهما عن السياسة و لنا أن نقارن بما هو موجود و ما يجب أن يكون موجودا، أراد تسي كوغ أن يستفسر على السلطة، فأجاب كونفوشيوس إن السلطة هي متمحورة في السياسة التي تنتهجها و تطبقها، فعلى السياسة أن تؤمن ثلاثة (03) أشياء رئيسية و التي هي على النحو التالي: (1)

1- لقمة العيش الكافية لكل فرد في المجتمع.

2- القدر الكافي من التجهيزات العسكرية.

3- القدر الكافي من ثقة الناس بحكامهم.

و بعدها سأل الطالب أستاذه عن النقاط 03 الأساسية ماهو الشيء الأول الذي يمكن أن يسمح فيه الحاكم إذا لم يستطع تحقيق هذه الأمور الثلاث، فأجاب كونفورشيوس القدر الكافي من التجهيزات العسكرية، و هذا معناه أنه يبقى محتفظ بتوفير لقمة العيش لجميع أفراد المجتمع و المحافظة على ثقة أفراد المجتمع بالحاكم، ثم قال الطالب لأستاذه و إذا من الأمرين الرئيسيين لم أوفق فيهما و أصبح من الضروري التضحية بأمر واحد ماذا سوف تتنازل، فأجاب الأستاذ سوف أتنازل عن توفير لقمة العيش لأفراد المجتمع و أبقى محافظا على ثقة أفراد المجتمع بي، فمن خلال هذا الدرس الذي يحمل في طياته أشياء مهمة و هي على الحاكم أو المسؤول في مجال السياسة يجب أن يشغل دائما على توفير الثقة بينه و بين شعبه فهذا جوهر السياسة فإن غابت الثقة فلا استمرار للسياسة و بالتالي سوف يفشل هذا الحاكم و سوف يتلقى ثورة من قبل أفراد المجتمع، و لا يبقى أي أساس للدولة و بالتالي سوف لن و لن تصنع حضارة و بالتالي سوف نجد عالم الأفكار يحتوي على ضبابية لحالة الواقع و منه لابد أن تكون علاقة تبادلية بين الحاكم و المحكومين، و على الحاكم أو رجل السياسة أن يتمتع بالنزاهة و الكفاءة و أخريا الملائمة لإشتغال ذلك المنصب الذي قال عنه السيد أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن الخلافة هي تكليف و ليست تشريف، أي أن المسؤولية و الرجل الحاكم يجب أن يعرف جيدا بأن هذا المنصب هو تكليف و بالتالي يجب أن يزرع الثقة و يجسدها في المجتمع

¹ - مالك بن نابي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 135.

بواسطة العدالة الإجتماعية و الصراحة بينه وبين شعبه.

و هنا يجب توضيح شيء مهم و هو أن هذا الحاكم أكيد أنه سوف يختار من قبل أفراد المجتمع أي أنه من المجتمع، لذا يجب أن نفكر مليا في صناعة منتجات تحمل في طياتها النخب التي يختار منها الصفوة في المجتمع الذين يشتغلون بالعلم و الدين الوسط مشبعين بالثقافة التنظيمية الممزوجة في الثقافة الإجتماعية بحكمة و تبصر من قبل أفراد غيورين على بلدهم و يحبون نشر الخلف الصالح الذي يقود البلاد إلى بر الأمان و بالتالي صنع مشروع الحضارة، و هنا يجب أن نعطي أهمية قصوى إلى الأسرة و المدرسة اللتان إن اهتممنا بهما و بنياهما على أسس قوية فإننا حتما سوف نصل إلى تحقيق إستراتيجياتنا مهما طال الزمن، و هنا نسقط ما قلناه على مجتمعنا فنجد من خلال دراسات واقعية لإدارات جزائرية و سبب عدم توفير لمواردها البشرية (موظفيها) الحوافز اللازمة و الفهم الجيد لها فغنه سوف ينعكس على أبناء هؤلاء الموظفين بالسلب مما يعانيه هذا الأب لكي يحصل على لقمة العيش فهنا نطرح سؤالاً مهماً و هو كيف نريد صناعة رجال يتمتعون بالمواطنة الصحيحة و الصريحة الذين سوف يصنعون الحضارة في البلاد؟

7-خاتمة:

بعد عرضنا لهذه المداخله يخلص في الأخير أنه وجب علينا اليوم و في بلد الجزائر أن يقوم على يد واحدة و هدف مشترك واحد و هو التفكير في بلد المليون و نصف المليون شهيد و نعمل كلنا نحن الباحثين على إيجاد الحلول الفعالة و البناءة لبناء جزائر قوية و نفكر في كيفية إعادة بناء حضارة، و هذا لن ينجح إلا إذا بدأنا الإشتغال على عالم الأفكار و التفكير في كيفية صناعة أفكار فعالة إيجابية و محاولة إستبدال تلك الأفكار القتالة و الميتة أو معالجتها و تحويلها إلى أفكار مبدعة، و لكن لن يتأتى هذا إلى بوجود إرادة سياسية تحمل في ذخيرتها مشروع حضارة و فهم المعنى الحقيقي للسياسة و كيف يجب أن تعمل على تأمين ما تحدث عنه الفيلسوف كونفوشيوس، و إعادة بعث روح جديد في المجتمع و إعادة تقييم و تقويم كل الأوضاع السائدة بلغة العلم و البحث العلمي مع مراعاة الجانب الديني و العقائدي الذي يمثل لنا روح الدولة لزراعة القيم و الأخلاق اللازمة لتأسيس أقوى دولة تسعى إلى فرض وجودها على كل الأصعدة سواء الإقتصادية و الإجتماعية و الثقافية و السياسية، و تأسيس حضارة القوة و العلم و الإبداع، و بالتالي سوف نعمل على إعادة وضع الخريطة السياسية الجديدة و إعادة هيكلة التبادلات الخارجية و التي تفرض فيها مكانة القوة و الإستثمار على من لا يملك الإستراتيجيات الحقيقية.

فيجب أن نشغل اليوم على صناعة منتوجات مزروع فيها الأمل و الإبداع، و تجسيد فيها المعنى الحقيقي للولاء الإجتماعي و المواطنة الإجتماعية، و غرس قيم جديدة تسودها الثقافة التنظيمية التي يجب أن تهيمن على الثقافة الإجتماعية و التي بدورها سوف تمحي كل دخيل عن عاداتنا و تقاليدنا، و يجب على مجتمعنا اليوم الوقوف على فهم تاريخ و أحداث البلاد سواء على مستوى التاريخ البعيد أو القريب لفهم حاضرننا و حتى نستطيع بناء مستقبلنا الذي هو أمانة بين أيدينا فيجب أن نسعى لبنائه لأجيال المستقبل منتجاننا و الذين هو أبناؤنا و أبناء أبناؤنا.

8-قائمة المراجع:

- الأخضر شريط ، مشكلة التاريخ في الحركة التاريخية (أو تفسير التطور الحضاري عند مالك بن نبي) دار الخليل الجلفة، طبعة خاصة، 2013.
- الجيلالي ضيف ، بنات المجد ، مالك بن نبي دار الخليل ، الجلفة ، 2013.
- بحوث ملتقي ، مالك بن نبي استشراف المستقبل ، (من شروط النهضة إلى الميلاد الجديد) ، ج1، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف – تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية ، 2011.
- عبد اللطيف عبادة ، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي ، دار شهاب ، باتنة ، الجزائر ، ط1 ن1984 .
- مالك بن نبي ، شروط النهضة، تر عبر الصبور شاهين، دار الفكر المطبعة العلمية، دمشق، 1979.
- مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، دار الفكر، دمشق، 1977.
- محمد العبدية، ملك بن نبي مفكر ورائد إصلاحي، ط1، دار القلم، دمشق، 2006.